دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الفكر السياسي عند مهدي السودان
المصدر:	دراسات إفريقية
الناشر:	جامعة إفريقيا العالمية - مركز البحوث والدراسات الإفريقية
المؤلف الرئيسي:	إبراهيم، حسن أحمد
المجلد/العدد:	ع 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1987
الشهر:	ابريل
الصفحات:	7 - 19
رقم MD:	131581
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المهدية ، الفكر السياسي الاسلامي، الحضارة الاسلامية، الحركة المهدية ، الحركات الاسلامية ، العقيدة الاسلامية، العلماء السودانيون، السودان، مصر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/131581

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفكر السياسي عند مهدي السودان

بروفسير / حسن أحمد إبراهيم

ظل كثير من المستشرقين ــ ونعني بهم الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية ــ ومنذ أمد بعيد ينتقدون الإسلام والمسلمين ويهاجمون الحضارة الإسلامية . وقد اتهم هؤلاء المسلمين بالتخلف والتحجر وعدم الادراك لأبسط الاشياء ، وجردوا الإسلام من أى سمات ابداعية أو أصيلة ، بل وزعموا أن تاريخه وحضارته كانت افرازا لحضارات غير اسلامية مثل الاغريقية والرومانية والصينية[١] ولم يكتف هؤلاء بسلب الإسلام كل قيمة حضارية بل اتهموا فكره السياسي بالجمود وعدم المقدرة على التطور . وقد تفاقمت هذه الحملة بصفة خاصة خلال القرن التاسع عشر عندما نسب هؤلاء المستشرقون تخلف العالم الإسلامي بصفة رئيسية للاسلام نفسه . وأشار أحدهم ــ اللورد كرومر الذي هيمن على شؤون مصر والسودان نحو ربع قرن من الزمان (١٨٨٣ ــ ١٩٠٦م) ــ بأنه لايمكن إصلاح الإسلام بأى حال من الأحوال وأنه لاسبيل لإزالة ذلك التخلف إلا بخضوع الأقطار الإسلامية خضوعا تاماً ولفترة طويلة للنظم والقيم الغربية[٢] .

وقد أوضحت دراسات لاحقة أن مؤلفات المستشرقين قد اتسمت بالسطحية على وجه العموم كما أماطت اللثام عن الجوانب السلبية في الإستشراق . ولعل من أهم هذه المؤلفات كتاب ادوارد سعيد «الإستشراق» الذي صدر حديثاً[٣] فقد بين هذا الباحث وبكثير من البراعة والذكاء أن كثيراً من الملمين بالفكر والثقافة الإسلامية من المستشرقين كانوا إما جهلة أو تعمدوا توظيف معرفتهم وإنجازاتهم العلمية لتبرير نظريات وافتراضات مسبقة لتحقيق أهدافهم السياسية المعادية للاسلام والمسلمين . غير أن هذا الهجوم الكاسح على الفكر الإسلامي كان له أثره السلبي الواضح خلال القرن التاسع عشر على المجتمع الإسلامي . فقد أصيب أمام الثقافة الغربية الزاحفة بصدمة عانى بسببها مركب نقص محسوس كان له أثره في كل تفاصيل حياة ذلك المجتمع الفكرية والاجتماعية والسياسية .

(*) استاذ التاريخ الحديث وعميد كلية الآداب ــ جامعة الخرطوم .

ونتج عن ذلك عند غالبية المثقفين المسلمين شبه شلل في حصانتهم الثقافية . فعند احتدام الصدام بين الفكر الإسلامي والغربي تخلى بعضهم عن أفكارهم ومبادئهم وبحثوا عن النجاة في المظاهر والقيم الحضارية الاوروبية . وحاول آخرون التغلب على مركب النقص هذا «بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس» وليتغلب بها على «المهانة» التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتا إشباع حاجته المرضية[٤] .

وإزاء هذا الهجوم العنيف على الفكر الإسلامي خلال القرن التاسع عشر ، شهد العالم الإسلامي عدداً من حركات البعث والاصلاح والثورة الإسلامية . غير أننا نلاحظ أن كثيراً من مفكري تلك الحقبة الإستعمارية من المسلمين ــ خاصة الشيخ محمد عبده ومن تتلمذ عليه كأحمد لطفي السيد ــ قد ركزوا على جانب الانفتاح نحو أوروبا والعصر الحديث حتى صاروا رواد إصلاح علماني خالص . واستعار هؤلاء من أوروبا بعض الأفكار كالديمقراطية والحكومة النيابية ثم غلفوها بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وقدموها على أنها فكر إسلامي سياسي . ومهد ذلك لطوفان التغريب باسم الإسلام في عهد مابعد الإستعمار ، وأدى إلى دعوة «المعاصرة» التي تهيمن الآن على معظم أجزاء عالمنا الإسلامي المعاصر متبنية برامج اقتصادية وإجتماعية وسياسية مقتبسة من حضارة أوروبا .

غير أن مهدي السودان (١٨٤٣ ــ ١٨٨٥م) ــ الذي أطاح بحكم أسرة محمد علي في السودان عام ١٨٨٥م وأقام دولة سيطرت على البلاد نحو خمسة عشر عاماً ــ قد بشر بفكر سياسي ثوري مغاير . بل إن حركته قد كانت من أهم الحركات الإسلامية التحريرية خلال القرن التاسع عشر إذ أنها ركزت على المصادر الأساسية للاسلام أى القرآن والحديث على وجه التحديد .

زعم كثير من المستشرقين بأنه لم يكن لمهدية السودان فكر سياسي إطلاقا ، بل إنها كانت حركة همجية متوحشة اندلعت كرد فعل فقط لمظالم العهد العثماني المتمثلة أساساً في استغلال العثمانيين البشع لموارد السودان البشرية والاقتصادية . بل ويرجح بعض هؤلاء أنها كانت حركة تجار رقيق قاموا بها إحتجاجاً على حملة الحكومة لإنهاء الرق وتجارة الرقيق التي أضرت بمصالحهم الاقتصادية كثيراً . وهاجم هؤلاء قادة المهدية خاصة المهدي وخليفته ونعتوهما بأقبح الأوصاف كالطغيان والتسلط

والتعطش للدماء[٥] كما سخروا واستهزأوا من أتباعهما بتسميتهم «الدراويش» في وقت نهى فيه المهدي نهياً قاطعاً عن اطلاق تلك العبارة المسيئه عليهم وسماهم «الأنصار» تيمنا بأنصار رسول الله ﷺ ، فجاء في أحد منشوراته مايلي : «فمن نفد قلبه إلى ماعند الله من الخير وترك مافي الدنيا من الضير لايسمى درويشا وإنما يسمى عاقلا ومدركا وبصيرا وناصرا لدين الله حيث أنه وافق إرادة الله وترك مالا يزينه ذلك لنور البصيرة . فلزم من سمى هذا بالدرويش الذي هو ذاهب العقل التعزيز والجلد[٦] .

تعرض المؤرخ السوداني الراحل مكي الطيب شبيكة بالنقد والتحليل إلى مزاعم المستشرقين ومحاولاتهم لسلب الثورة المهدية أبعادها الأيدولوجية[٧] فأوضح أن السخط الذي ذكروه لايفسر اندلاع الثورة وإلا فلما استحمله السودانيون لأكثر من ستين عاماً ولم يثوروا عليه إلا عام ١٨٨١م . فاندلاع الثورة ــ أى ثورة ــ يتطلب جيشاً ثورياً وقيادة ثورية وفوق كل هذا دعوة أو أيدولوجية ثورية .

فالثورة المهدية إذن ثورة دينية في المقام الأول هدفت لتحرير العقيدة الإسلامية ومالحق بها من شوائب . وفي الحقيقة أن أهم مايميز فكر المهدي السياسي أنه كان سلفيا مفرطا في السلفية فوجهه كان من الماضي البعيد ووجهته كانت نحوه . فهو قد رأى في مجتمع الرسول وخلفائه الراشدين المجتمع المثالي وآمن بأن ماتردى إليه المسلمون من سوء وماحل بهم من إنقسام وهوان قد نشأ عن ابتعادهم عن ذلك المجتمع . وعليه يتعين أن يكون الهدف هو العودة إلى ذلك المجتمع الفاضل والعيش كما عاش . ومن هنا رفض المهدي رفضا باتا وقاطعا كل ماجاء من أوروبا ودعى للعودة إلى أصل الدين المتمثل في الكتاب والسنة وحدهما . فالمهدية إذا امتداد للصدر الأول الإسلامي مندرجة فيه[٨] .

ويلاحظ الدارس لخطابات ومنشورات المهدي أنه قد ردد هذه المعاني في كثير منها . فقد كانت صيغة مخاطبته لأتباعه كالآتي :

« ..... من العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى أحبابه في الله وأتباعه على سكة رسول الله ﷺ ....» وقال في منشور موجه لأتباعه على سكة رسول الله في سنة ١٣٠١هـ (١٨٨٣م) : «إن أمرنا هذا تبع لابدع وقال في منشور آخر للملازمين في سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) : «وكما لايخفاكم أن من أحبني فليقتد بي فإني على نهج رسول الله ﷺ ، وزمني متدرج في زمنه ، وأصحابي على قدم أصحابه . وقال رسول الله ﷺ : «من احبني فليستن بسنتي» . وقال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين بعدي» ومن أقواله : « إني عبد مأمور بإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما» و«ماجاءكم منسوبا لي إذا وجدتموه مخالفاً للكتاب والسنة فاضربوا به عرض الحائط» و«.... اقفوا أثر رسول الله ﷺ بالأمر بما أمر به والنهى عما نهى عنه» و«واعلم أني محيى مامات من الدين . ومظهر ماأندفن من سنن الأنبياء والمرسلين»[٩] . وفي رسالة يوضح فيها أسس البيعة قال المهدي : « .... فإذا كنتم موفون لبيعتكم وعهدكم فإن بيعتكم هذه بيعة رسول الله ، إذ أن من بايعني فقد بايع رسول الله ....»[١٠] .

وقد كان مهدي السودان محمد أحمد بن عبد الله مهيأ للقيام بهذا الدور التأصيلي . فهو قد ولد حوالي سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م في بيت ينتسب إلى أسرة لها شهرة دينية محلية تعرف بالأشراف . وقد نسبت هذه الأسرة نسلها إلى نسل رسول الله فقال المهدي نفسه في أحد منشورات الدعوة «وليكن معلوما عندكم أني من نسل رسول الله ﷺ فأبي حسني من جهة أبيه وأمه وأمي كذلك من أمها ، وأبوها عباسي والعلم لله ، بل إن لي نسبة إلى الحسين رضي الله عنه»[١١] . ومن المهم أن نذكر أن هذا الزعم كان معروفا عن هذه الأسرة قبل أن يظهر محمد أحمد ويدعي المهدية ويجعل نسبة إلى الرسول إحدى علامات مهديته[١٢] . وقد أظهر محمد أحمد منذ طفولته وصباه شغفا واضحا بالدراسات الإسلامية واشتهر بالتعبد والتقوى والاخلاص الشديد للدين . فقد كان زاهدا متقشفا لايخشى في الحق لومة لائم . فهو قد أظهر تبرما مبكرا من علاقة رجال الدين بالحكومة العثمانية الفاسدة وقبولهم الجرايات التي تنفقها عليهم . ولهذا فقد رفض أن يتناول الطعام من خلوة شيخه محمد الضكير عبد الله خوجلي بالقرب من بربر . وأنكر محمد أحمد على أستاذه محمد شريف نور الدائم انشغاله بالظاهر وأخذ عليه إجازة الرقص والطرب وإجتماع الرجال والنساء خلال حفل إقامه بمناسبة ختان أولاده . وأعلن أن ذلك بدعة وفساد وإن كان صاحبه شيخ طريقته[١٣] . ولا غرابة في ذلك إذ أن مثل المهدي الأعلى في الحياة كان الرسول ﷺ الذي حاول جاهدا الاقتداء به في سلوكه الشخصي وعمله العام فمتابعة للسوابق النبوية أعلن المهدي مثلا دعوته سرا في عمر يقارب الأربعين ثم جهر بها ، كما أنه هاجر من الجزيرة أبا إلى قدير تيمنا بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة .

ويبدو أن ميل المهدي الشديد إلى فكرة التوحيد والتشدد فيه ورغبته الجادة في توحيد كلمة المسلمين وتوجيههم على عقيدة واتجاه واحد قد حملاه على الغاء المذاهب والطرق الصوفية . فهو قد دعى أحبابه ـــ وهو اللفظ الذي كان يستخدمه عادة لوصف أتباعه ـــ منذ بداية الثورة المهدية على عدم التعلق بالأئمة والاعتماد على الكتاب والسنة والتخلص من رواسب الطرق الصوفية لأن ذلك ضروري للتخلص نهائيا من شبهه الوساطة بين الخلق وخالقها . ولعل الاشارة الأولى التي وردت في هذا الاتجاه قد جاءت في خطاب من المهدي إلى الشيخ محمد الأمين الهندي[١٤] . وقد ساعدته هجرته عام ١٨٨١ من الجزيرة التي سيطر عليها جو الطرق الصوفية إلى قدير في غرب السودان على السير في هذا الاتجاه بحزم وحسم .

وبين أيدينا الآن نصوص كثيرة حول الغاء المذاهب والطرق . فها هو المهدي يؤكد للفقيه بلل صابون وأتباعه أنه قد نسخ جميع الكتب من فقه وتوحيد ماعدا القرآن والحديث الصحيح «لأن جميع الكتب المذكورة مصدرها القرآن العظيم . وأن من عمل بالقرآن بالآية المحكمة والأحاديث الصحيحة كان بذلك جامعاً لجميع ماذكرته من الكتب خصوصاً الفقه والتوحيد فمندرج في القرآن العظيم وداخلا في الشهادة[١٥] وقد أكد الخليفة عبد الله على إبطال الطرق الصوفية في خطاب هام وجهه لبعض أتباع الطريقة التجانية التي كان ـــ ومازال ـــ لها أتباع كثيرون في السودان وغرب أفريقيا . فقال فيه :

« ..... قد علمنا من جوابكم إلى حضرة السيد الإمام عليه السلام بأن الأخوان الذين معكم أمروكم بترك الطريقة التجانية . وأخبروكم بأن الإمام نفسه أمركم بذلك فما أصغيتم[١٦] لقولهم وتوقفتم عن تركها وذكرتم أنكم ترددوا في مقالتهم ورغبتهم رد الافادة اليكم في خصوص ماسمعتموه منهم : هل هو صحيح أم لا لآخر ماتوضح بجوابكم فهم .

والحال اعلموا أيها الأحباب ــ وفقني الله وإياكم وجعلني وإياكم من الأحباب ــ إن مانقلوه اليكم اخوانكم المذكورين فهو صحيح وهو الحق الذي لامرية فيه ، وهو أحق أن يتبع ، فاعتمدوه واتركوا التوقف ومأأنتم عليه من التمسك بتلك الطريقة واحسنوا الظن في اخوانكم واستغفروا الله مما فرط منكم والتردد والوقوع في حقهم ولو امعنتم نظركم من أول وهلة لعلمتم أنه ماكان ينبغي لكم ذلك لأن الأمر واضح كالشمس لما أن الإمام المهدي خليفة رسول الله ﷺ خاتم الأولياء على الاطلاق عند أهل الظاهر والباطن . ومعلوم عندكم وعند جميع أهل البصائر أنه على نور من الله وتأييد من رسول الله ﷺ وموعود أنه يرفع المذاهب ويطهر الأرض من الخلاف ويعمل بالسنة حتى لايبقى إلا الدين الخالص بحيث لو كان رسول الله ﷺ موجوداً لأقره على جميع أفعاله لأنه ﷺ قال في حقه يقفوا اثري لايخطأ »[١٧] .

ويجب أن نذكر هنا أن المهدي قد رفع المذاهب دون انتقاص من قدر ائمتها الذين اجتهدوا في ظروفهم فكانوا خير الهداه ، كما أنه الغى الطرق الصوفية دون إنكار لفضل مشائخها على ماقدموا من هدايه وماتجلوا به من صلاح وتقوى . ولكن تجاوز صراعات الفكر الإسلامي كان ضرورياً لإزالة الفرقة بين المسلمين وتوحيد كلمتهم تماماً كما كان حالهم في بداية عهدهم بالإسلام . وذلك بهدف الخلاص من السلطان العثماني الذي سقطت شرعيته ، ولتحرير أقطار الإسلام من نزوات أوروبا التي اقتطعت ديارها جزءاً جزءاً وسيطرت عليها مباشرة أو عن طريق التفريط العثماني[١٨] .

غير أن المهدي قد اضطر لمنازلة لفيف من علماء السودان في حرب فكرية وسياسية شعواء . وبهذا تكون مهدية السودان قد أثارت قضية من أهم قضايا الفكر السياسي والديني في السودان . فالعلماء بقيادة الشيخ أحمد الأزهري شيخ علماء عموم غرب السودان والمفتي شاكر الغزي مفتي مجلس استئناف السودان قد أنكروا على محمد أحمد المهدية وسموه المتمهدي . بل وكفروه لأنه خرج عن مااعتبروه النظام الشرعي المتفق عليه ، وحذروا الناس من الانضمام له . وذلك لأنه خرج على السلطان العثماني خليفة المسلمين في وقت تنص فيه الأدلة الشرعية ــ على حد زعمهم ــ بأنه لايجوز عزله ولا نبذ بيعته إلا إذا كفر أو كفر أحدا . واستطرد هؤلاء زاعمين بأن محمد أحمد ليس أهلا للمهدية لأنه لايستوفى شروطها التي فصلوها في رسائلهم[١٩] . ويجب أن نذكر هنا أن هذه الرسائل قد صدرت بإيعاز من الحكام العثمانيين كغردون باشا ليستعينوا بها في حربهم ضد المهدي . وفي رده على هؤلاء العلماء الذين سماهم « علماء السوء » اتهمهم المهدي بأنهم أفسدوا الدين لانشغالهم بالمراتب والوظائف والمظاهر وبأنهم جعلوا الدين مطية للحكام فما قدموا لهم نصحا ولا معارضة لأهوائهم . وشجب المهدي العلماء بأنهم عبيد للنصوّص فهناك أية تنسخها أية وحديث ينسخه حديث . وأنكر

المهدي عليهم عدم إيمانهم بالمعرفة عن طريق الوسائل الإلهامية ، كما رفض التقيد بالشروط التي ذكروها لاثبات مهديته لأنها مقيدة لقدرة الله الذي هو قادر على أن يفعل مايريد[٢٠] . وفرض المهدي حظراً كاملا على رسائل وكتب هؤلاء العلماء وغيرهم فلم ينشر إلا ما أجازه فقط[٢١] ، كما أنه أصدر عددا من الخطابات والمنشورات التي هاجم فيها العلماء المعارضين له هجوماً عنيفاً . ففي أحدها قال :

«ياعلماء السوء» تصومون وتصلون وتتصدقون وتدرسون مالاتفعلون فما سوء ماتحكمون ! تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى ، ومايغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسه . بحق أقول لكم : لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة . كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم .

يا علماء السوء . كيف يدرك الآخرة من لاتنقضي من الدنيا شهوته ولاتنقطع عنها رغبته . بحق أقول لكم أفسدتم اخرتكم بصلاح دنياكم ، وصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى الناس اخسر منكم لو تعلمون ؟ ويلكم حين تصفون الطريق للمدجلين وتقيمون في محلات المتجبرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم . مهلاً مهلاً ! ماذا يعني البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحشى معطل ؟ كذلك مايغني عنكم أن يكون نور العلم في افواهكم واجوافكم منه وحشة معطلة . ياعبيد الدنيا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم من أصولكم فتكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواهيكم ثم تدفعكم من خلفكم إلى الملك الديان حفاة عراة فيجزيكم بسوء أعمالكم[٢٢] .

وهكذا فإن المهدية لم تهدف لتحرير وطني قطري بل كانت موجة لبعث الاسلام في كل دياره ولطرد المتسلطين عليها ولوضع حد لخلافة آل عثمان الباطلة لأنهم كما جاء في منشور من المهدي بتاريخ ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م «خالفوا أمر الله وأنبيائه ومن أمرهم الاقتداء به وحكموا بغير ماأنزل الله وغيروا شريعة سيدنا محمد وسبوا دين الله ووضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين . وكل ذلك لم يأمرهم به الله ولا رسوله . ومع ذلك أمهلهم الله وبسط عليهم النعم فلم يتفكروا حتى خذلهم الله وسلبهم ثوب الملك والهيبة بتعديهم حدود الله[٢٣] . ومن هنا فقد كان الجهاد ركيزة أساسية في فكر المهدي السياسي ، بل وإن المهدي قد أمر بأن يعطل مؤقتاً ركن من أركان الإسلام ــ الحج ــ ليتفرغ المسلمون لهذا الواجب المقدس وذلك لأنه السبيل الوحيد والأمثل لنفى المفاسد وطرد الدخلاء من المسلمين . فالمهدية فيها ــ كما أشار المهدي في خطاب للشيخ الطيب محمد البصير ــ «الحرب والحزم والعزم والتوكل والإعتماد على الله واتفاق القول»[٢٤] . وقد حث المهدي أنصاره على الإستخفاف بالدنيا لابهدف الإنصراف عنها كما فعل كثير من المتصوفة وإنما من أجل الاستهانة بها وبالموت في سبيل الله لإقامة الدين[٢٥] . وأدب المهدية مملوء بالنصوص التي تحث على الجهاد . فقد ورد في منشور من المهدي في الحدود : «وجاهدوا في سبيل الله واعلموا أن سيفا سل في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة . ومن صبر في الجهاد حلب ناقة ــ يعني مده حلبها ــ أفضل من عبادة

سبعين سنة[٢٦] ، والجهاد جزء أساسي من بيعة الإمام المهدي التي جاء فيها «وأن نبذل أنفسنا وأموالنا في سبيل الله وأن لانفر من الجهاد رغبة فيما عند الله لا لرغبة في الدنيا ولا لرئاسة ولا لتناء» . وفي منشور من المهدي في ترغيب الجهاد قال : «اعلموا أيها الأحباب أن في الجهاد تصفية الإيمان والفوز بحسن رضا الرحمن ، واعلموا أنه لابد من اختيار التوحيد والإيمان وتجرد الصافين والصادقين بالامتحان فيظهر عند ذلك ماكان منطويا في سريرة العبد من الخلوص لله والخسران . فعند المصايب تتضح الأحوال وتبين الرجال وينكشف ماهو من النسوان ، قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾[٢٧] وجاء في منشور من الخليفة عبد الله عن فضل الجهاد مايلي : «وقد علمتم أحبابي رحمكم الله تعالى أن أعمال الخير شتى . ولكن الجهاد في سبيل الله أجلها وأعلاها وأكملها بعد الإيمان بالله لأن فيه بيع النفس والمال لله . وذلك سبب النجاة دنيا وآخرة من كل شر . ومن مات أو قتل في سبيل الله فقد أدرك رتبة الشهادة ونال من الله الحسنى وزيادة وأمن من ألم الموت وعذاب القبر وأهوال الحشر والنشر وفاز فوزا عظيما . فالعاقل من أخلص عمله لله وباع نفسه وجاهد في سبيل الله واستعد للموت قبل نزوله[٢٨] .

لم يكن الفكر السياسي السلفي الذي دعى له المهدي عملا أكاديمياً نظرياً إذ أن المهدي وخليفته قد طبقاه بحسم وعزم في دولة المهدية في السودان التي كان من المأمول أن تكون النواة والمركز الذي ينطلق منه لتكوني دولة الإسلام الكبرى . فالمهدي قد أطاح بدولة العثمانيين العلمانية التي عطلت أحكام الشريعة بتطبيقها القوانين الوضعية فاندرس فيها الدين وأصبحت جاهلية ثانية . وأقام هو وخليفته مقامها دولة إسلامية على غرار دولة الرسول والخلفاء الراشدين . فكان الكتاب والسنة مصدراً في تشريعاتها الداخلية والجهاد محوراً لسياساتها الخارجية . فقيادتها السياسية كانت مفوضة ومسئولة أمام الله عما تفعل ويفعل عمالها في الأقاليم ، كما أنها أخذت بمبدأ الشورى وساست الناس بالمعروف والعدل ، وقد ساندها جيش فدائي جند كل طاقات الأمة لمهمة إحياء الإسلام وتحرير دياره في كل أقطاره . والجدير بالذكر أن المهدي قد سمى — في محاولة أخرى منه لمتابعة السوابق النبوية — مساعديه الرئيسيين الأربع بالخلفاء . وبما أن المهدي قد اعتبر نفسه خليفة رسول الله فقد سمى خليفته الأول عبد الله خليفة الصديق (في إشارة إلى أبي بكر الصديق) والثاني على ود حلو خليفة الفاروق (في إشارة إلى عمر بن الخطاب) . أما منصب الخليفة الثالث (خلافة عثمان بن عفان) فقد عرضه المهدي على محمد المهدي السنوسي زعيم الطريقة السنوسية بالمغرب . وسمى المهدي خليفته الرابع قريبه محمد شريف خليفة الكرار علي بن أبي طالب صهر النبي ﷺ وابن عمه . وقد أمر المهدي هؤلاء وغيرهم من مساعديه بالعدل حيث قال : «واعلموا أيها الأمراء والخلفاء والنواب أن أميرا منكم أو خليفة أو مقدم أو نائب عنا في سائر الجهات فليتدارك الأمور والقضايا في جهته بالحكم فيها وراحة أصحابها بما شرعه الله فيها من الدين . وكل منكم يحكم في أهل جهته وناحيته بحكم الله ورسوله في كتابه ويعاملهم بمنشورنا هذا ، ولاتتركوا أحدا يرجع إلينا من ذلك شاكيا .. لأن أقامة الدين أحب إلى الله ورسوله وأولى من كل شيء فأنصحوا مع الله ورسوله في قصدكم واعدلوا في حكمكم ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين كما قال الله تعالى : ﴿ وردوا المظالم إلى أهلها ولو من

أنفسكم ﴾ واعملوا بقول رسول الله ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجحد حقا هو عليه وليؤده فوراً ..»[٢٩] .

أما برنامج المهدي الإجتماعي فقد كان مواكبا لفكره السياسي . فهو قد اتخذ من التقشف والزهد أساساً لفلسفته الاجتماعية وجعلهما محور المجتمع الذي نادى به ، واعتقد أن بهما العلاج الناجح لمشكلات العالم والحالة المزرية التي تردى إليها العالم الإسلامي . وذلك لأنه رأى أنه ينبغي على الانسان الترفع عن الفوائد المادية المباشرة لما هو أقيم له في رحاب الفضيلة والقيم الدينية[٣٠] . فهو قد قال لأحبابه في منشور البيان أقدم مناشير الدعوة : «لايخفى عزيز علمكم فناء الدنيا ، وأن من تجرد لله قصدا وصدق في دينه وامتثل لأمر الله لا يلاحظ جاها ولا مالا إلا من كان بالله ولله لا ينظر إلى ذلك . فإذا نظر في ذلك حجب عن الله وطرد من حضرته وأوقعه الله في نار الهموم والأتعاب . ولعذاب الآخرة أشد . ومن خرج عن الجاه والمال لله عوضه الله خيرا منه وكان مقربا عند الله تعالى[٣١] ولذلك هدف برنامج المهدي إلى إزالة مظاهر الترف وإزالة الفساد ومسبباته من خمر ودخان وفساد كما كان مناهضا للعادات السودانية البالية كالنواح على الميت وتبرج النساء ولباس الأحجبة وإستعمال المعازيف والدلاليك وغيرها . وبين ايدينا الآن عدد كبير من منشورات المهدي التي تتبنى هذا الاتجاه وتدعو إليه . فكان على أحبابه كما جاء في منشور الدعوة أن يبايعوه قبل أن ينخرطوا في سلك المهدية بأن لايسرقوا ولا يزنوا ولا يأتوا ببهتان . بل وأن المهدي قد منع حتى اللبس الأجنبي فقال في منشور بتاريخ ذى الحجة ١٣٠٠هـ : «كل مايؤدي إلى التشبه بالترك الكفره أتركوه كما قال تعالى في الحديث القدسي : قل لعبادي المتوجهين أن لايدخلوا مداخل أعدائي ولا يلبسوا ملابس أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي ... وكل الذي يكون من علاماتهم ولباسهم فاتركوه .. وتخلقوا بأخلاق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين[٣٢] . واتخذ فكر المهدي السياسي من الحدود والعقوبات الاسلامية وسيلة رادعة لمحاربة تلك العادات وتطهير المجتمع السوداني من المفاسد المحرمة التي انتشرت آنذاك بأقبح صورها . فقد عوقبت مثلا المرأة السافرة أو تلك التي تتجول في الأسواق والطرقات العامة أو تخالط الرجال الأغراب بالجلد الذي بلغ أحيانا مائة سوط . ويرى البروفسير هولت أننا يجب أن لاندين هذه العقوبات القاسية ونعتبرها دلالة على التخلف والرجعية والتحفظ الأعمى . فالثورة المهدية وحروبها الداخلية والخارجية قد أدت إلى هزات إجتماعية كبيرة في السودان اضطرت المهدي أن يلجأ إلى مثل هذه القوانين والعقوبات الصارمة ليفرض النظام على القبائل السودانية التي اعتمد عليها . ثم إن انتصارات المهدي الأولى كانت في غرب السودان حيث تمتعت نساء قبائل البقارة بحرية أكثر من زميلاتهن في المناطق النيلية . وأضاف هولت بأن المهدي حاول منع السفور والاختلاط بين الجنسين حماية للمرأة[٣٣] .

وكان اقتصاد دولة المهدية اقتصاد طوارىء وجهت فيه كل الطاقات لخدمة أيدلوجيتها المتمثلة في معركة بعث الإسلام وتحرير دياره من الكفرة . فالثروة الأساسية في يد بيت المال والمال عند الأفراد أمانة عليهم أن يحسنوا التصرف فيه وإلا أخذ منهم وأضيف إلى بيت المال إن صرفوه في حرام أو في

التباهي والتفاخر . وصاحب الارض يزرع مايستطيع منها ويترك الباقي ليزرعه الآخرون دون مقابل لأن المؤمنين أمة واحدة . فقد وجه المهدي في أحد منشوراته أحبابه قائلا : «فمن كان له طين فليزرع فيه مااستطاع زرعة وإذا عجز أولا احتاج إليه لايأخذ فيه دقنيه (وهى ضريبة عينية يدفعها الزارع لصاحب الأرض) لأن المؤمنين كالجسد الواحد»[٣٤] . وإيرادات الدولة كلها بما فيها الغنائم تذهب إلى بيت مال المسلمين ليصرف منها على الجهاد وعلى أفراد المجتمع كل حسب حاجته ، وقد حذر المهدي أنصاره بصفة خاصة من التعدي على الغنائم بقوله : «إن من أخذ إبرة من الغنائم تقع يوم القيامة في قعر بحر من نار ويؤمر بأن يخوص البحر ليخرجها»[٣٥] .

وما أن استتب الأمر للمهدي في السودان إلا وبدأ الجهاد الذي هدف به كما قال في خطاب لخديوي مصر «لإقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين وقطع دابرهم باستئصالهم من عند آخرهم إن لم ينيبوا إلى الله ويسلموا»[٣٦] . وفي نفس المعنى خاطب المهدي أهالي مراكش وفاس والسنوسي في ليبيا وحياتو بن سعيد في صوكت . ودخلت دولة المهدية رغم المؤامرات الداخلية والتآمر الإستعماري من الخارج والأزمة الاقتصادية الطاحنة التي عانت منها في صراع مع كل الدول المستعمرة التي كانت تسيطر على كل المناطق المحيطة بالسودان . وكان المهدي وخليفته على يقين من النصر إذ «أن جنود الله لا يهزموا» . وحرصا منهما على مواصلة الجهاد بلا انقطاع فقد أباحا للمجاهدين الحصول على مؤنهم بشتى الطرق إذ أن «رزق المجاهد في سيفه» . وبهذا تمكنت دولة المهدية من منازلة بريطانيا وإيطاليا وبلجيكا وتركيا العثمانية ومصر الخديوية التي كانت في واقع الأمر مطية بريطانية . والجدير بالذكر أن المهدي وخليفته قد رفضا رفضاً باتا التعاون مع أى من الكفرة حتى يدخلوا في دين الله . فعندما عرض غردون على المهدي قبيل سقوط الخرطوم في ١٨٨٥م الصلح وسلطنة كردفان رفض المهدي ذلك دعا غردون بأن يشفق على نفسه ويخلصها «من سخط خالقها» باتباع دين الحق . واستطرد المهدي مخاطبا غردون : «واعلم أنك إذا اتيتنا مسلما نربيك فنريك من النور مايطمئن به قلبك ويزول به طمعك في الدنيا ومافيها» وأعاد المهدي إلى غردون كسوة الشرف التي أرسلها له مع جبة الأنصار «كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لايبالون بما فات من المشتهيات طلبا لعالى الدرجات . وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وسبحة .

فإن أنبت إلى الله وطلبت ماعنده لايصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك»[٣٧] . ورفضت دولة المهدية نداءات امبراطور الحبشة المتكررة لعقد صلح وحلف بين الدولتين الأفريقيتين ضد الاستعمار الأوروبي الذي هددهما تهديداً مباشرا . غير أن ذلك قد رفض رفضا تاما تمشياً مع فلسفة المهدية التي أصرت على الدخول في الاسلام أولا وإلا الحرب . فها هو قائد المهدية حمدان أبو عنجة يرد على عرض مماثل جاءه من امبراطور الحبشة بقوله : «وأما طلبك الصلح وأنت باق على كفرك فبعيد بعد المشرقين ودليل على ضعف عقلك وفراغ ذهنك . فيالك من سفيه ويالك من جاهل أتريد منا صلحا ومؤاخاة ولم تدخل في دين الحق وكتاب الله ناه عن ذلك . فإن رمت الصلح فقل مخلصا من قلبك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رَسول الله ﷺ وإلا فإنا نقاتلكم

ونخرب دياركم ونيتم أطفالكم ونغنم أموالكم كما وعدنا الله ذلك في كتابه العزيز[٣٨] .

وهكذا فقد استوعب فكر المهدي السياسي تيارات قوية من تيارات الفكر الإسلامي فهضمها وتجاوز تعددها وتفرقها بوحده ربطتها بإحياء الكتاب والسنة معيدة الفروع إلى الأصول صاهرة الكل في بوتقة جديدة . ولذلك كان من الطبيعي أن يتعرض هذا الفكر إلى حرب لا هوادة لها من الغرب الذي عمل آنذاك ولا يزال يعمل حتى يومنا هذا على إجهاض أى دعوة بعث إسلامي خاصة إن كانت سلفية أصيلة . ونتج عن ذلك التآمر سقوط دولة المهدية عام ١٨٩٨ بعد أن دافع أنصار المهدي عنها ببسالة وشجاعة نادرة نالت إعجاب أعدائهم قبل أصدقائهم . ولا غرو فإن قائدهم السياسي قد بشرهم بالنصر أو الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله .

هوامش البحث

(١) محمد بن عبود : «منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ، في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والاسلامية ، الجزء الأول (تونس ١٩٨٥) ، ص ٣٥٢ الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري .

(٢) **Cromer, the Earl of: Modern Egypt (London 1908),P. 28**

خصص كرومر خمس فصول من هذا الكتاب (ص ١٢٣ ــ ٢٥٩) تحدث فيها بكثير من الجهل والتجني عن المصريين والإسلام .

(٣) **Said, Edward W. : Orientalism (New York, 1978)**

(٤) مالك بن نبى : **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث** (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ١٥ ــ ١٦ .

(٥) انظر على سبيل المثال ثلاثة كتب كتبها ونجت ــ الذي شغل منصب مدير المخابرات المصرية خلال عهد المهدية ــ أو أعدت ونشرت تحت إشرافه :

Mahdism and the Egyptian Sudan (London 1891), Fire and the Sword in The Sudan (London 1896), and Ten Years of Captivity in the Mahdi's Camp (London 1892).

وقد كانت هذه الكتب وغيرها جزءا من حملة منظمة لإيهام الرأى العام البريطاني بأن المهدية حركة همجية متوحشه وأنه لابد لما سمى بالعالم المتحضر من القضاء عليها .

(٦) محمد إبراهيم أبو سليم : منشورات المهدية (الخرطوم ١٩٦٩) ، ص ٢٩٧ نشر أبو سليم في هذا المصدر عدداً كبيراً من منشورات المهدي وخليفته الخليفة عبد الله التي عالجت مختلف القضايا .

(٧) أعد شبيكة عددا من المؤلفات عن الثورة والدولة المهدية كان آخرها السودان والثورة المهدية الذي صدر في أربع أجزاء نشرت في الخرطوم في ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ ، ١٩٨٢ و١٩٨٤ على التوالي .

(٨) الصادق المهدي : **يسألونك عن المهدية** (بيروت ١٩٧٥) ، ص ١٦٩ .

(٩) لمعرفة مصادر هذه المنشورات والخطابات وغيرها ارجع إلى :
محمد إبراهيم أبو سليم : **المرشد إلى وثائق المهدي** (الخرطوم ١٩٦٩) ظلت وثائق المهدي مبعثرة في أصولها وفي بطون مصنفات الرسائل إلى أن قام أبو سليم الأمين العام لدار الوثائق القومية السودانية بجمعها في هذا **المرشد** الذي نشرته الدار عام ١٩٦٩ . وفي هذا السجل والمصنف الفريد أحصى أبو سليم وثائق المهدي موضحا في كل منها الراسل والمرسل إليه وتاريخ الصدور وملخصا للموضوع والمصادر التي يرد فيها النص كاملا . وهذا المرشد دليل وهاد لابد من توفره عند كل باحث ودارس للمهدية .

(١٠) أبو سليم : **منشورات المهدية** ، ص ٢٨ .

(١١) **المصدر السابق** ، ص ٢٦ .

(١٢) محمد إبراهيم أبو سليم : **الحركة الفكرية في المهدية** (الخرطوم ١٩٧٠) ، ص ١٢ .

(١٣) **Holt, P.M : The Mahdist State in the Sudan 1881-1898 a study of its Origins, Development and Over throw (2nd ed, Oxford 1970) PP. 46-48.**

(١٤) أبو سليم : **المرشد** ، رقم ٤٤ .

(١٥) **المصدر السابق** ، رقم ٨٧٩ .

(١٦) يشير هذا القول إلى أن الناس قد جمعوا حتى ذلك الوقت بين المهدية والطرق الصوفية . وهو دليل أيضا على أن إلغاء الطرق الصوفية قد وجد معارضة قوية .

(١٧) أبو سليم : **منشورات المهدية** ، ص ٦١ ــ ٦٢ .

(١٨) الصادق المهدي : **يسألونك عن المهدية** ، ص ١٦٤ ــ ١٦٥ .

(١٩) أصدر المفتي شاكر الغزي رسالة سماها «في بطلان دعوى محمد أحمد المتمهدي» ، كما أصدر الأزهري رسالة أخرى بعنوان «في تكذيب دعوى محمد أحمد المتمهدي» . للنص الكامل لرسالتي المفتي والأزهري انظر على التوالي نعوم شقير : **جغرافية وتاريخ السودان** (الطبعة الثانية ، ١٩٧٢) ص ٩٥٢ ــ ٩٦١ و٩٦١ ــ ٩٧٠ .

(٢٠) لدراسة مفصلة عن الخلاف الفكري والسياسي بين المهدي والعلماء انظر عبد الله علي إبراهيم : **الصراع بين المهدي والعلماء** (الخرطوم بلا تاريخ) .

(٢١) كان الفكر في دولة المهدية فكرا موجها لخدمة أغراض الثورة والدعوة . فالتأليف والطبع كانا امتداداً للجهاد المقدس والكتابة سبيلا من سبل الدفاع والجهاد مثلها في ذلك مثل السيف . ولذلك فلا غرابة أن تمكن الأنصار في مدى خمس عشرة سنة فقط من طبع مجلدات من الكتب والمصنفات وعدد ضخم من الرسائل والمحررات . وبلغوا في ذلك حداً معقولاً من الجودة والاتقان بالرغم من الصعاب الكثيرة الفنية وغير الفنية التي واجهوها . وربما يكفي أن نقول هنا بأن ماطبع من ذلك الأدب الموجه في هذه الفترة القصيرة يفوق ماطبعه السودانيون حتى الثلاثينيات من هذا القرن .

أبو سليم : **الحركة الفكرية** ، ص ٥٨ .

(٢٢) أبو سليم : **منشورات المهدية** ، ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ .

(٢٣) **المصدر السابق** ، ص ٤١ .

(٢٤) **المصدر السابق** ، ص ١٥ .

(٢٥) الصادق المهدي : «أيدلوجية المهدي» في عمر النقر : **دراسات في تاريخ المهدية ، المجلد الأول ، البحوث التي قدمت للمؤتمر العالمي لتاريخ المهدية ، الخرطوم ٢٩ نوفمبر ــ ٢ ديسمبر ١٩٨١** ، ص ٦٥ .

(٢٦) أبو سليم : **منشورات المهدية** ، ص ١٨٥ .

(٢٧) **المصدر السابق** ، ص ١٨٧ .

(٢٨) **المصدر السابق** ، ص ١٣١ .

(٢٩) **المصدر السابق** ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(٣٠) أبو سليم : **الحركة الفكرية** ، ص ٤٩ .

(٣١) أبو سليم : **منشورات المهدية** ، ص ١٩ .

(٣٢) الصادق المهدي : **يسألونك عن المهدية** ، ص ٢٠٠ .

(٣٣) Holt: Opcit, PP. 130 - 31

(٣٤) أبو سليم : **منشورات المهدية** ، ص ١٩٦ .

(٣٥) نعوم شقير : **جغرافية وتاريخ السودان** ، ص ٩٣١ .

(٣٦) للنص الكامل لخطاب المهدي إلى الخديوي توفيق انظر **المصدر السابق** ، ص ٩٢٢ ــ ٩٢٦ .

(٣٧) أبو سليم : **منشورات المهدية** ، ص ٣١٩ ــ ٣٢٧ .

(٣٨) للنص الكامل لخطاب يوحنا ورد حمدان عليه انظر : نعوم شقير : **جغرافية وتاريخ السودان** ، ص ١٠٧٣ ــ ١٠٧٦ .